الفصل الأول

وحدة حركة تاريخ الوطن العربي الحديث

في تاريخ الوطن العربي معالم واضحة وشواهد بارزة على ارتباط الأحداث وتفاعل بعضها مع بعض على الرَغْمِ من المساحة الجغرافية الواسعة التي يشغلها هذا الوطن. ولقد تجلت بدايات تلكَ الوحدة من خلال دور العرب المتميز في نشر الرسالة الإسلامية وإقامة الدولة العربية الإسلامية الموحدة. ولقد ارتبط الوطن العربي من مغربه إلى مشرقه بالتطورات السياسية والحضارية لتلك الرسالة. وانعكست عليه بشكل واضح في الأدوار التاريخية التي مرت عليه فيما بعد، فأصبح الحاضر متواصلاً مع الماضي الذي تنامى إشراقه بأعظم حدث في تاريخ الأمة العربية، وهو ظهور الإسلام. وذلك لعمقِ وشمولهِ التغييرِ الذي أحدثه في الحياة العربية وللمستوى العالي من النضج الذي ارتقت إليه الأمة العربية. فقاد الرسول العربي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم العرب في أروع عملية تجدد حضاري أساسه الوحدة القومية للأمة التي بشرت الأمم الأخرى برسالة الإسلام الإنسانية. من جانب أخر ارتبط الحاضر في جانبه السلبي بالتراجعات والانتكاسات التي ظهرت في الماضي نتيجة الخلل الذي أصاب مسيرة الأمة ودولتها العربية الإسلامية مما سبب انحطاطاً حضارياً كان له تأثيره على تشتتها مخلفا تناقضات سياسية واجتماعية عززها الغزو الأجنبي في التاريخ الحديث، ، وقد كان لواقع التجزئة هذا الذي فرضه الأجنبي أثره الكبير في إبعاد معظم المؤرخين والمفكرين عن النظرة الأفقية الشاملة والتصور الواضح لحركة تاريخ الوطن العربي في أدوار الانحطاط وفي محاولة الانبعاث من جديد. فركز الكثير من مؤرخينا وكذلك بعض المستشرقين على دراسة التاريخ العربي ضمن الحدود السياسية للدولة القطرية

مفسرين الأحداث التاريخية لهذا القطر أو ذاك ضمن أطار تلك الحدود من دون التواصل مع التاريخ العربي الموحد الشامل الذي تشكل أحداث القطر الواحد جزءاً منه على امتداد الوطن العربي.

إن هذا النقد لا يعني أنّه يجب ألّا نكتب عن تاريخ المغرب الأقصى وحدَه أو فلسطين ضمن مكوناتها الحضارية أو تاريخ العراق وتطوره. لأنه لا يمكننا أن نتجاوز خصوصية كل قطر عربي، فهي واقع يفرض نفسه، لكننا في الوقت نفسه يجب ألّا ننسى أن هناك عوامل مشتركة تربط حركة تاريخ القطر العربي ببقية الوطن العربي، وبعبارة أوضح فإن من واجب المؤرخ العربي أن يتذكر دائماً أن البقعة التي يعيش عليها هي جزء من كلٍّ جغرافياً وتاريخيا، وهذا الكل هو الأمة العربية التي عاشت وتعيش تواصلاً مستمراً بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها لذلك عليه أن يفهم تاريخ القطر الذي يعيش فيه من خلال فهمه لتاريخ الأمة العربية وحركته.

يتضح من هذا أن هناك وجهين للكتابة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر الأول هو دراسة حركة تاريخ الجزء باعتباره واحدا من كل، وفي تقديري أن «الطاهر عبد الله»، على سبيل المثال لا الحصر قد نحا هذا المنحى في كتابه (الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة ١٨٣٠ - ١٩٥٦ (أما الوجه الثاني فهو دراسةُ وكتابة التاريخِ العربيِّ وكتابتُهُ في إطار النظرة الأفقية الشاملة لحركة تاريخ الأمة على امتداد الوطن العربي من جناحه الغربي إلى جناحه الشرقي، وحسب علمي فإن معظم مؤرخينا لم يحاولوا الدخول إلى تاريخنا العربي الحديث من هذا الباب على الرغم من أهميته. علماً أن هذه الأهمية ليست بالاعتيادية في عصر تكتب فيه المدارس الفكرية الأوروبية والصهيونية عن تاريخنا عموماً بمناهج تتخذ من التفسيرات الطائفية والعرقية أساساً لاستنتاجاتها بهدف تأكيد تمزق الأمة العربية.

لقد أردت من هذه المقدمة وعنوان البحث أن أعالج موضوعاً طالما عانينا منه في كتاباتنا عن التاريخ الحديث، بل وحتى عند تأليف كتب التاريخ الحديث المنهجية لطلبتنا في جميع المراحل الدراسية وصولاً إلى الجامعة، وهو الاقتصار في الكتابة على المغرب العربي الكبير وصولاً إلى مصر عند معظم المؤلفين

المغاربة واقتصار المؤلفين المشارقة على المشرق في كتاباتهم من دون تجاوزٍ لحدود مصر وليبيا متناسين جزءاً كبيراً من الوطن العربي. وفي هذه الدراسة سأقدم نموذجاً لحقبة تاريخية معينة من بدايات التاريخ العربي الحديث تدل على وحدة هذا التاريخ، انطلاقاً من الشعور بوحدة المصير واللغة والمصالح المشتركة رغم التمزق والغزو الأجنبي، مؤكداً أن التاريخ العربي الإسلامي الموحد الذي لا يختلف العرب في فهم وحدته مشرقاً ومغرباً يشكل جذوراً أساسية لوحدة حركة التاريخ العربي الحديث مع وجود الخصوصية لكل منطقة أو إقليم أو قطر، والتي كانت بارزة في كل حقب وعصور تاريخ الوطن العربي منذ قدمه.

إن الفترة التاريخية التي سنأخذها نموذجاً لهذه الدراسة هي مرحلة الغزو الأجنبي والمقاومة العربية التي تمثل بدايات التاريخ الحديث، ولكي تكون الصورة واضحة فإنه من الضروري العودة إلى نهاية العصور الوسطى العربية الإسلامية والتي يحددها سقوط الدولة العباسية سنة ١٢٥٨ م عندما احتل المغول بغداد في المشرق العربي، وبالمقابل سقطت دولة الموحدين سنة ١٢٦٨م في المغرب العربي والتي أعقبها فيما بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م حيث تصاعد الغزو الأوروبي للمغرب العربي واتجه إلى البحر الأحمر والخليج العربي باسم الاستكشافات الجغرافية الأوروبية. ثم توقف هذا الغزو إثر تدخل الدولة العثمانية وسيطرتها الشاملة على الوطن العربي عدا المغرب الأقصى والخليج العربي،ثم جاء الغزو الأوربي الشامل للوطن العربي في التاريخ الحديث والذي ابتدأ منذ سنة ١٨٣٠م وحتى سنة ١٩١٨م عندما أكمل الأوربيون سيطرتهم على الوطن العربي بكامله عند نهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد تجلت في التاريخ الأوروبي العربي الحديث ثلاثة مظاهر تبين بشكل واضح وحدة التاريخ العربي في هذه المرحلة وهي شموليّة الغزو الأوروبي للوطن العربي وشموليّة المقاومة العربية التي عمت جميع أجزاء الوطن العربي لصد الغزو الأجنبي، ثم الوحدة الفكرية التي تجلت في التعبير عن العقيدة العروبية الإسلامية من خلال الآداب والشعر والمناهج السياسية والتداخل بين المشرق والمغرب العربي.

١- شمولية الغزو الأوروبي:

من المعروف أن دوافعَ اقتصاديةً ودينيةً متعصبةً قد لعبت دورها في الغزو الأوروبي للوطن العربي الذي يتميز بموقعه الستراتيجي، وبوجود المنافذ البحرية والموانئ المهمة فيه مثل سواحل البحر المتوسط الجنوبية والشرقية، والبحر الأحمر، وبحر العرب، وخليج عمان، والخليج العربي، ولهذا لم يقتصر الغزو الأوروبي على المغرب العربي الذي ابتدأ منه[١]. وتصاعد إثْرَ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ليتوجه البرتغاليون لغزو البحر الأحمر والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب والخليج العربي، وقد ابتدأت أولى هذه الحملات بعد خمس سنوات فقط من سقوط غرناطة، عندما قام فاسكوديكاما بحملته على السواحل الجنوبية للوطن العربي إذْ وصل إلى الهند متمماً رحلة (بارتلموديباز) إلى رأس الرجاء الصالح في الطرف الجنوبي من أفريقيا، وقد حدد الملك عمانويل الأول ١٤٩٥م- ١٥٢١م أهداف حملة ديكاما بالقول إنّ الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق[٢].

لقد أدت حركة الاستكشافات الجغرافية إلى وصول البرتغاليين إلى البحر الأحمر واستعمالهم القوة العسكرية للسيطرة عليه، وهذا ما فعله الفونس البوكيرك ذو النزعة الاستعمارية المتعصبة ضد العرب المسلمين ومن تبعه بعد ذلك فقد سيطروا على باب المندب وسواحل اليمن وعدن وتسللوا إلى البحر الأحمر الذي سيطروا عليه خلال السنوات ١٥١٧م ـ ١٥٣٠م[٣]. وتمكنوا كذلك من السيطرة على

---

(١) بعد سقوط دولة الموحدين تصاعد الغزو الأوروبي للمغرب العربي على الرغم من قيام دويلات ثلاث على أنقاض دولة الموحدين هم الحفصيون في تونس وبنو بن الواد في المغرب الأوسط وبنو مرين في المغرب الأقصى، لقد شهدت هذه الدويلات الثلاث بدايات الغزو الأوروبي الحديث للوطن العربي على يد الدول المسيحية الناشئة في بداية القرن الخامس عشر. وقد كان لعوامل التنافس ومحاولة الدويلات الثلاث السيطرة الواحدة على الأخرى أثره في ضعفها أمام الغزوات الأجنبية وقد شهدت السنوات ١٥٠٩م- ١٥١٥م استيلاء الإسبان على أهم موانئ الجزائر إضافة إلى موانئ في المغرب الأقصى.

(٢) د. عبد الحميد البطريق، تأريخ اليمن الحديث، مصر ١٩٦٩م، ص ١٩.

(٣) قصي كامل شبيب، مضيق باب المندب وأهميته الاستراتيجية في التاريخ الحديث والمعاصر، رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة المستنصرية في تشرين الثاني ١٩٧٩ م بإشراف الدكتور محمد مظفر الأدهمي ص (٣٩)، (٤٥).

سواحل الجزيرة العربية الجنوبية ومضيق هرمز في الخليج العربي سنة ١٥٠٧م وتوغلوا فيه[١].

وعندما جلا البرتغاليون عن البحر الأحمر سنة ١٦٢٢م تبعهم الهولنديون في السيطرة وَالتنافس على الخليج العربي. ثم حل محلهم البريطانيون عسكرياً في الخليج العربي وكان للفرنسيين نصيب في هذا التنافس.

لم تدم الهجمة الأوروبية طويلاً فقد توسعت الدولة العثمانية في الوطن العربي فبعد أن احتلت بلاد الشام سنة ١٥١٦م ومصر سنة ١٥١٧م ثم الحجاز وسيطرت على اليمن سنة ١٥٣٨م واستولت على العراق سنة ١٥٣٤م دخلت المغرب العربي الكبير بعد احتلالها لليبيا سنة ١٥٥١م وتونس واستولت على الجزائر سنة ١٥٢٩م ولم تتمكن من احتلال المغرب الأقصى المعروف آنذاك باسم مراكش. . لقد أوقفت السيطرة العثمانية الغزوَ الأوروبيَّ مدة قرنين من الزمن أصبح الوطن العربي خلالها(عدا مراكش وبعض مناطق الخليج العربي) تابعاً لسلطة الدولة العثمانية.

لا بد لنا من التوقف عند هذه النقطة لإبداءِ رأينا فيها لأن بعض المؤرخين في المغرب العربي لا يُعدُّون سيطرة مسلمي الدولة العثمانية على الوطن العربي حكماً أجنبيا بحكم الرابطة الدينية ولكونهم تدخلوا لصالح المغرب العربي ضد الغزو الأوروبي.

إلا أن الأحداث التاريخية برهنت على أن السلطة التركية العثمانية قد تصرفت على أنهم أتراك أكثر من كونهم مسلمين. يضاف إلى هذا أن السلطة التركية العثمانية لم تكن مظهراً من مظاهر القوة أو الوحدة للوطن العربي، فالدولة العثمانية لم تكن دولة عصرية قياساً بما كان العالم يتجه إليه من تطور. وفوق هذا كله فإن الأتراك العثمانيين دخلوا المنطقة محتلين كما دخلها من قبلهم البويهيون والسلاجقة والذين كان لهم دور كبير في أضعاف الدولة العربية الإسلامية أيام العباسيين. ولا تختلف هذه الصفة، أي: صفة الاحتلال عن الفرس الصفويين الذين كانوا في صراع دائم مع العثمانيين للسيطرة على العراق بشكل خاص والمشرق عموماً.

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يعني اعتناقُ البويهيين أو السلاجقة أو الأتراك أو الفرس للإسلام منحَهم سمةَ الدخول إلى الوطن العربي لاحتلاله ليصبحوا

(١) البطريق، المصدر السابق، ص١٩.

هم الحكام بدلاً من سكانه العرب حملة راية الإسلام الأولى التي بشروا بها هذه الأقوام؟؟ وإذا كان الأمر هكذا فمعنى ذلك أنّ المغول الإلخانيين ومن جاء بعدهم هم أيضاً ليسوا بغزاة لأنهم اعتنقوا الإسلام بعد غزوهم للعراق وسوريا. إن التفسير الموضوعي لهذه الظاهرة هو أن هذه الأقوام الغازية قد أخذت من الأمة العربية الاسلامَ ولمْ تقدْم لها شيئاً، لأن للأمة العربية حصانةً ذاتية تقاوم فيها أيام ضعفها وذلك باحتوائها للمحتل من خلال اعتناقه الإسلام. فإذا كانت الأمة العربية قد حصنت نفسها أمام المحتل بهذه الطريقة، فلا يعني أنها ستستسلم لذلك المحتل.

إنّ الاحتلال التركي العثماني قد أدى إلى نقل العاصمة إلى خارج الوطن العربي فأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة وأصبح الوطن العربي مقسماً إلى ولايات عثمانية فرضت عليها العزلة.

أما من الناحية الإقتصادية فقد استولت السلطة الجديدة على الأراضي الزراعية معتبرة أياها ملكاً للسلطان العثماني، فوزعت على القواد العسكريين وجبات الضرائب الثقيلة، كما توقفت الحركة العمرانية بسبب الركود الاقتصادي وأهملت الأراضي الخصبة وانعدم الأمن، وأهملت الأمور الصحية مما أدى إلى نقص في السكان بسبب انتشار الأوبئة. من جانب آخر ضعفت حركة التأليف بالعربية بسبب جعل اللغة التركية لغة الدواوين، وتشير المصادر إلى أن مظاهر الأمن والاستقرار أخذت تضعف تحت الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن السادس عشر كما اضطربت المواصلات الداخلية والحياة الاقتصادية فعم الاستياء والانحطاط في الوطن العربي، وتحول هذا الاستياء تدريجياً إلى ثورات مسلحة ضد الحكم التركي الذي مارس جميع أنواع القسوة والتنكيل ضد سكان الوطن العربي. ففي سنتي ١٥٩١م-١٥٩٢م على سبيل المثال اضربت دمشق احتجاجاً على تعسف الدفتر دار محمود، وتزعم الحركة القاضي مصطفى بن سنان، وفي لبنان ظهر الأمير فخر الدين الثاني الذي حاول الاستقلال عن الأتراك، كما انتفضت مصر، وفي ليبيا ثار زعيم عربي في طرابلس وأقام له ملكاً هدفه طرد الأتراك وإقامة العدل، وفي الجزائر ثارت قبائل زواوة ضد الأتراك ولم يتمكن أحد من البشوات إخمادها وإخضاع القائمين بها[١].

(١) د. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الدار البيضاء ١٩٧٨، ص ١٨٢.

بدأت الدولة العثمانية بالتدهور في أواخر القرن السابع عشر وظهر ما يسمى بالمسألة الشرقية إثر توقف التوسع العثماني بعد الحرب التي شنتها روسيا والنمسا ضدهم وتوقيع معاهدة كارلوفتز سنة ١٦٩٩م ومنذ هذه الفترة أخذت الدول الأوروبية الكبرى تتوسع على حساب الدولة العثمانية وتتنافس على تقسيمها، كما فقدت السلطة المركزية على الأقاليم العربية، وقد مهد هذا الأمر للعزو الأوروبي الحديث للوطن العربي.

فغزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨م ثم أعقبته سلسلة متواصلة من عملية الغزو الأوروبي ابتدأت باحتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠م وتونس ١٨٨١م واحتلال البريطانيين لمصر سنة ١٨٨٢م واحتل الإيطاليون ليبيا سنة ١٩١١م، وفرضت الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى سنة ١٩١٢م ثم احتل البريطانيون والفرنسيون العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى وحتى نهايتها سنة ١٩١٨م وبذلك فرض الأوروبيون سيطرتهم التامة والشاملة على الوطن العربي.

يتضح من هذه الحقائق أن الغزوات الأجنبية على الوطن العربي لم تقتصر على جزء من أجزائه، كما أنها لم تكن على مراحل متفرقة فإن ما تعرض له المغرب العربي من غزو أجنبي كان متزامناً مع ما تعرض له المشرق العربي ضمن أسباب ودوافع وعوامل واحدة، وفي إطار ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية واحدة أيضاً. مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات والقطرية التي تأثرت بتلك الدوافع والظروف ودارت داخل إطار حركتها.

٢. شمولية المقاومة العربية وتناسقها:

ظهرت المقاومة العربية للغزو الأجنبي في كل أرض وطِئَها ذلك الغزو سواء في المغرب أم في المشرق، ففي القرن السادس عشر تصدت المقاومة العربية في المغرب العربي للغزو الإسباني والبرتغالي[١]. وكذلك فعل أهل اليمن[٢]. ومثلهم فعل أهل الخليج العربي الذين تصدوا للبرتغاليين وثاروا عليهم[٣].

(١) د. صلاح العقاد، المغرب العربي، مصر ١٩٦٩، ص ١٩ - ٢٧.

(٢) شبيب، المصدر السابق، ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٣) د. عبد الأمير محمد أمين «دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي»

إلا أن تلك المقاومة اختلفت في صيغها وأساليبها من مكان إلى آخر، فقد ظهرت بشكل مقاومة مسلحة في المغرب العربي وليبيا ومصر والخليج العربي؛ وأفرزت في الوقت نفسه فكراً عروبيا إسلاميا واضحاً في هذا المجال. في حين ظهرت بطريقة أخرى في العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية وهي المقاومة الفكرية ذات الطابع العروبي الإسلامي التي أفرزت فيما بعد المقاومة العسكرية.

ويمثل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ذورة تصاعد المقاومة العربية وشموليتها بحكم شمولية الغزو الأجنبي، وقد تبدو هذه النظرة غير مألوفة لدى البعض لأن الغزو الأوروبي للمغرب العربي ومصر والسودان قد تزامن مع السيطرة العثمانية في العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية والتي لا يعتبرها البعض احتلالا شبيها بالاحتلال الأوروبي للمغرب العربي بحكم ظروفٍ وعواملَ عديدةٍ أشرنا اليها سابقاً. ولا بد هنا من التوقف مرة ثانية عند هذه النقطة قبل إعطاء المؤشرات التي تبين العلاقة المشتركة بين المشرق والمغرب العربي في مقاومته الغزوَ الأجنبي.

تعرض المغرب العربي لغزو أوروبي اتخذ صفة الحرب الصليبية ضد العرب المسلمين، وقد كان لهذا الطابع الديني تأثيره في تقبل المغاربة المساعدة من الدولة العثمانية باعتبارها دولة مسلمة، وأدى ذلك بالنتيجة إلى بسط سيطرة الدولة العثمانية غير المباشرة على المغرب العربي عدا الأقصى منه، وبذلك لم يصطدم العرب المسلمون في المغرب العربي بالدولة العثمانية التي انتهى دورها عندما استقر الغزو الأوروبي فيه وبدأت ا لمقاومة العربية تناضل ضده بالقوة المسلحة، في حين استمرت السيطرة العثمانية على العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية متخذة شكلاً أخر وهو السيطرة المباشرة التي تصاعدت في عدائها للعرب المسلمين عند استلام جمعية الاتحاد والترقي السلطة إلى الحد الذي حاول فيه العثمانيون طمس الهوية القومية العربية ولغة القران الكريم من خلال سياسة التتريك العنصري، وقد أثار ذلك العرب المسلمين في المشرق العربي مثلما أثارت سياسةُ فرنسا العنصريةُ

= بحوث المؤتمر الدولي للتأريخ المنعقد في بغداد ١٩٧٣، ص ٦٥٠ ـ ٦٨٧ انظر أيضاً عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة ١٦٢٤ ـ١٧٤١، بيروت ١٩٧٥.

العربَ المسلمين في المغرب العربي، لذلك انتظم عرب المشرق داخل جمعيات سرية وعلنية أبرزها الجمعية العربية الفتاة التي نسقت مع الزعيم الديني الشريف حسين بن علي عَلَى تأجيج الثورة المسلحة ضد العثمانيين الأتراك[١] وبهذا التحالف اتخذت حركة المقاومة العربية في المشرق العربي طابعاً قومياً عروبياً لم يهمل الإسلام كعقيدة ولم يعتبره شيئاً غريباً عن العروبة بل سلاحاً ضد الأتراك الذين نكلوا وأعدموا العرب المسلمين في بلاد الشام. لقد اعتقد الشريف حسين والقيادات العربية أنهم بتقبلهم معونة البريطانيين سيكسبون دعمَ دولةٍ كبرى وَعَدَتْهم بالاستقلال التام. إلا أن تلك الدولة غدرت بهم لانها وفرنسا وبقية الدول الأوروبية الاستعمارية كانت تريد تنفيذ مخططاتها وتحالفاتها في إحكام السيطرة على كل الوطن العربي، بعد أن سيطرت على الجزائر وتونس ومصر والسودان والخليج العربي، لذلك احتلت بريطانيا وفرنسا العراق وبلاد الشام والجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى في الفترة من ١٩١٤م ـ ١٩١٨م من دون تحقيق الوعود[٢] وهي الفترة التي احتلت فيها إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١م واعلنت فرنسا الحماية على المغرب الأقصى سنة ١٩١٢م حيث شهدت ليبيا والمغرب الاقصى مقاومة عنيفة للغزو الأجنبي.

إن هذه الخصوصية التي تميز بها المغرب العربي عن المشرق في تطور أحداثهما قد قادت العديد من الباحثين والمؤرخين إلى الوقوع في خطأ فهم هذه المعادلة فاعتبر الكثيرُ ومنهم جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب» ومحمد عزة دروزه في كتابه «نشأة الحركة العربية الحديثة»، إن تحرك الأمة العربية للانعتاق بمقاومتها السلطة الأجنبية ومحاولتها تكوين الدولة العربية الواحدة كان هدفاً قومياً مجرداً ومقتصراً على المشرق العربي ضمن المساحة الممتدة من العراق إلى مصر دون مغربِهِ متناسين أن أعضاء الجمعية العربية الفتاة كانوا عرباً مسلمين وأن قائد الثورة العربية الشريف حسين كان عربياً مسلماً ومن عائلة الرسول العربي الكريم

(١) انظر أيضاً النسخة المترجمة تحت عنوان: يقظة العرب (جورج انطونيوس)، ترجمة الدكتور / ناصر الدين الأسد والدكتور / إحسان عباس، بيروت ١٩٧٨، ص ١٧٥ ـ ٢٥٠، وكذلك محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، بيروت، ص ٣٥٠ ـ ٥١٠

(٢) Antonius. op cit.,P.164-183, 243-275

محمد صلى الله عليه وسلم وإن هدفه هو إعادة أمجاد الدولة العربية الإسلامية. بمعنى أن مفهوم العروبة لم يكن بعيداً عن روح الإسلام وحضارته عند قادة المقاومة في المشرق العربي. كذلك غاب عن ذهن بعض المؤرخين المغاربة أن عبد القادر الجزائري وغيره من قادة المقاومة العربية في المغرب العربي كانوا يؤمنون بعروبتهم ولا يفرقون بينها وبين الإسلام. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله بهذا الصدد: (إن الجهاد الذي أعلنه الأمير عبد القادر مثلاً لم يكن قاصراً على المفهوم الديني وحده وإنما كان يعني بالدرجة الأولى الدفاع عن الوطن والقومية واللغة والحضارة والمستقبل)[١]. ويضيف: (فإذا تذكرنا حالة الوطن العربي خلال النصف الأول من القرن الماضي ـ أي: القرن التاسع عشر ـ نجد أن الأميرَ بحقٍ رائدٌ من رواد القومية العربية بمفهومها الحديث فقد كان يدافع عن فكرة الحرية وعن أرض كانت وما تزال جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي[٢]. هناك أمثلة عديدة تؤكد هذا الرأي فقد كان عبد القادر الجزائري يلقب نفسه الأمير العربي، وقد لقبه بيجو في إحدى رسائله اليه بـ (سلطان العرب). وقد رد مرة على شكوك بيجو في الاتفاق قائلاً (إن لنا ديناً وأخلاقاً عربيةً تلزمنا المحافظة على قولنا)[٣]. إن هذا يجرنا إلى السؤال التالي وهو: لو كان المغرب العربي قد تعرض لسياسة التتريك العنصري التي تعرض لها المشرق العربي، فهل كان يسكت قادة المقاومة في المغرب العربي ومنهم على سبيل المثال الأمير عبد القادر الجزائري أو ابن خليفة التونسي أو عبد الكريم الخطابي؟ وهل كانوا يقبلون بالتخلف والحكم التعسفي الذي مارسه العثمانيون الأتراك في المشرق العربي؟ إن الجواب على ذلك هو النفي بالتأكيد ودليلنا القاطع على ذلك هو مقاومتهم لسياسة فرنسا العنصرية في المغرب العربي والتي كان الهدف منها طمس الثقافة العربية بنشر الثقافة الفرنسية، وإجبار الشعب العربي في المغرب على التكلم بالفرنسية أو الإيطالية بدلاً من العربية، وإثارة

(١) د. أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، تونس ١٩٧٦، ص ١٢٨- ١٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٣) محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، دار اليقظة العربية ١٩٦٤، ص ٢٧٢، ٢٨٠

النعرات الطائفية والإقليمية والعرقية مثلما فعل البريطانيون والفرنسيون في المشرق العربي. صحيح أن الحركة القومية العربية قد اتخذت طابعاً منظماً وواضحاً في المشرق العربي أكثر منه في المغرب العربي إلا أنها كانت فكرياً وعقائدياً ذات اتجاه واحد وهدف واحد على امتداد الوطن العربي وإن ظهرت هناك خصوصيات معينة. وسنقدم فيما يأتي مؤشرات وأدلة تؤكد وحدة ترابط المقاومة العربية في الوطن العربي ضد الغزو الأجنبي:-

أ- عندما غزا نابليون مصر في سنة ١٧٩٨م هبَّ المغاربة يشاركون في الدفاع عنها، وقد خشي بونابرت أن يلعب المغاربة دوراً في هزيمة قواته فاصدر في ١٣ أيلول من العام نفسه نداء يدعو المغاربة للسفر إلى بلادهم خلال ثلاثة أيام، إلّا أن المغاربة لم يتركوا مصر وبقوا يدافعون عنها باعتبارها أرضاً عربية[١]. إن هذا الشعور قد احتدم عند المغاربة أينما كانوا حتى ان الشيخ الكيلاني المغربي الذي كان مقيماً في الحجاز حث الناس على الجهاد وبذل الأرواح والمال من أجل مصر، وقد استجاب لنداءاته الكثير من أهل الحجاز الذين ركبوا البحر وانضموا إلى أهل الصعيد والمغاربة المقيمين في مصر لمقاومة الغزو الفرنسي[٢].

ب- في سنة ١٩١١م هبَّ الشعب العربي في تونس لمشاركة الشعب العربي في ليبيا في دفاعه عن أرضه العربية ضد الغزو الإيطالي فقامت حركة تونس الفتاة بقيادة علي باشا حانبه والشيخ عبد العزيز الثعالبي بِمَدِّ المقاتلين العرب في طرابلس بالمتطوعين التونسيين، وفي جمع التبرعات المادية والعينية لتموين المقاتلين وتسليحهم وإسعافهم، وأسسوا الهلال الأحمر لحمل المؤن والأدوية إلى ليبيا كذلك قامت معارك طاحنة بين الإيطاليين والعرب التونسيين داخل تونس وآخرها معركة الجلاز المعروفة[٣]. ولم يكن الغزو الإيطالي لليبيا هو وحده الذي أجج هذه المعركة وإنما احتلال الفرنسيين لمدينة فاس في المغرب

(١) الجبرتي، عجائب الأثار في التراجم والاخبار، ٣ أجزاء، بيروت، جـ ٣، ص ١٩.
(٢) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٥٧ وما بعدها.
(٣) الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة، ١٨٣٠ - ١٩٥٦، ص ٤٨ - ٥١.

الأقصى تمهيداً لفرض الحماية عليه[١]. من جانب أخر حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية تقييد حركة المجاهدين التونسيين نحو ليبيا بحكم المصالح الأوروبية في هجمتهم الشاملة على الوطن العربي[٢]. ولا بد من الإشارة إلى أن المشرق العربي لم يكن بعيداً عن الغزو الإيطالي لليبيا فعندما سحبَ العثمانيون من جماعة الاتحاد والترقي الجيشَ التركيَّ من طرابلس بهدف القضاء على الثورات العربية ضدهم في اليمن، مما كان عاملاً مهماً في احتلال الإيطاليين لطرابلس. تحرك النواب العرب في مجلس «المبعوثان» واسْتَقَالَ الكثيرُ منهم من جمعية الاتحاد والترقي تعبيراً عن الاحتجاج العربي في المشرق على ذلك[٣]. ولم يكتف النواب العرب بالاستقالة بل انضموا إلى جمعية الحرية والائتلاف التي ضمت «الحزب العربي» وزادوا من نشاطهم في مقاومة الإتحاديّين العثمانيين[٤].

ج- لم يكن قادة المغرب العربي بعيدين عن حركة القومية العربية وتنظيماتها في المشرق العربي فعندما انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس (سنة ١٩١٣م) أرسل الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري برقية إلى المؤتمر قال فيها: «أيها السادة الأفاضل العظام أعضاء المؤتمر العربي اتصلت بدعوتكم لأبناء الأمة العربية بكل فرح وسرور، وأدعو الله من صميم الفؤاد أن يثبت سعيكم وإني واحد منكم قلباً وقالباً وما دامت الأفكار شريفة والمقاصد عفيفة فلا شك من النجاح وأخبركم أن دعوتكم كان لها صوت رنان وقد انتشرت في جميع الآفاق وأتتنا الجرائد الشرقية والغربية بما يَسُرُّ الخاطر، ويبعث على الأمل بنجاح هذه النهضة العامة» وأخبر الأمير خالد أعضاء المؤتمر أنه كان يود الحضور بنفسه في «مؤتمرهم العظيم» لولا انشغاله بالاستعداد للسفر[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٩- ٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٥١.

(٣) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٧٢. ١٣١.

(٤) محمد مظفر الأدهمي، المجلس التأسيسي العراقي، دراسة سياسية، أطروحة ماجستير مقدمة إلى جامعة بغداد سنة ١٩٧٢، ص ٢٤.

(٥) المؤتمر العربي الأول، مجموعة وثائق، ص ١٩٦.

إن أهمية برقية الأمير خالد هي أنها لم تكن تعبر عن شخصه فقط وإنما كانت كما بين في الرسالة تعبر عن الشعور العام المؤازر للمؤتمر من قبل الشعب العربي في المغرب العربي كما تبين الصورة الواضحة التي كانت في ذهن العرب من أجل بناء مستقبلهم سواء في المشرق أم المغرب.

د- بقدر ما كان المغرب العربي متوجها إلى المشرق العربي في دعمه لحركته القومية، كان المشرق العربي يحمل الاتجاه ذاته. فعندما قامت الثورة العربية في ١٠ حزيران ١٩١٦م لم ينس قادة الثورة أن الوطن العربي يمتد إلى المحيط الأطلسي وليس عند مصر، لهذا أمر الشريف حسين قائد الثورة بتوزيع منشور الثورة الأول، الذي صدر في ٢٦ حزيران في المغرب العربي وسلمت نسخ منه إلى العديد من قادةِ المغربِ[١] وعلمائِه ومفكريه . وقد هدف المنشور بمجمله إلى تقديم الوقائع التي توضح تفريط العثمانيين الأتراك بقيم الإسلام وأماكنه المقدسة، والتأكيد على أن العرب هم وحدهم حماة الإسلام وكلِّ القيم السماوية وتصدرت المنشور الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وتطرق إلى عمليات التعسف التي يمارسها العثمانيون فقال: «كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى إحساساتنا البحث فيها وتستدعي تفطر قلوب مسلمي المعمورة آسى وحزناً على دولة الإسلام وتمزيق ما بقى من سكان ممالكها بلا تفريق بين مسلمهم وذميهم فريق منهم بالصلبِ وأنواعِ الإعدام، والآخر بإجلائه عن وطنه على الصورة المعهودة والحالة المشهودةَ. علاوة على ما أصيبوا به في أموالهم وأنفسهم».

ثم عكف البيان على تبيان استهتار الاتحاديين العثمانيين[٢] بسيرة الرسول العربي الكريم محمد ﷺ عندما وصفتها جريدتهم الإجتهاد بـ «شر

(١) سليمان موسى «المنشور الأول للثورة العربية الكبرى وتوزيعه في شمال أفريقيا» المجلة التاريخية المغربية، يناير ١٩٧٧، تونس، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) الاتحاديون الأتراك هم صنيعة الماسونية والدونمة وقد عملوا على هدم الدولة العثمانية من خلال نشرهم للفكر الطوراني العلماني، وذلك للعمل على قيام الدولة اليهودية في فلسطين. وانتقاماً من السلطان عبد الحميد الثاني الذي طرد هرتزل عندما طلب الثاني السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين والتملّك فيها.

السير. .بمرآى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها» وقدم البيان أمثلة على إهمال الاتحاديين للتعاليم الإسلامية في الصوم والصلاة وعدد البيان أسماء الذين أعدمهم جمال باشا الملقب بالسفاح وكيف تم تشريد عائلاتهم ومصادرة أملاكهم وأموالهم وأضاف البيان: «وقلنا ربما لمن مسوغ إليه، فكيف يمكن أن ننتحل مسوغاً لجرأتهم على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقي الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائري الحسني وإهانته وتحقيره.».

ثم انتقل البيان إلى وصف رمي الكعبة المشرفة من قبل العثمانيين حيث سقطت إحدى هذه القنابل قرب الحجر الأسود واشتعلت النيران في ستائر الكعبة وقد استمر قصفهم للمسجد ولمقام إبراهيم يومياً مما أدى إلى استشهاد العديد من العرب المسلمين وقد أوضح البيان رأي الشريف حسين الممثل للثورة العربية بالقول: «نعم نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الإسلامي ولكننا لا نترك كياننا الديني والقومي ألعوبة في أيدي الاتحاديين وقد يسر الله تبارك وتعالى للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها»[١].

يتضح من بيان الثورة العربية الموجه للمغاربة أنه أراد أن يبين لهم أن الثورة مع أنها ضد العثمانيين وذات طابع عربي قومي. فهي تتمسك بالإسلام باعتباره جزءاً من الوجود القومي العربي لذلك فهي ترفض التفريط بتعاليمه وأماكنه المقدسة كما بين للمغاربة أن الثورة العربية في المشرق العربي تعتبر الأمير عبد القادر الجزائري واحداً من قادة الأمة العربية؛ لأن أهدافها واحدة وطريقها واحد. وإن إعتداء العثمانيين على قبر الأمير عبد القادر الجزائري يؤكد تخليهم عن قيم الإسلام وهم بذلك لا يختلفون عن الفرنسيين الذي يريدون طمس عروبة المغرب العربي.

و- مشاركة حفيدي الأمير عبد القادر الجزائري في الثورة العربية بدمشق نتيجة لاتخاذ الأمير عبد القادر الجزائري دمشق مقراً لسكناه بعد خروجه من السجن فقد نمت عائلته وترعرعت في بلاد الشام وكأنها تعيش في المغرب العربي ولم تكن عائلة الأمير عبد القادر وحدها فقد عاشت معهم في دمشق أعداد كبيرة من

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩ ـ ١١١.

المغاربة وقد أدى هذا التواجد إلى مشاركة حفيدي الأمير عبد القادر سعيد، وعبد القادر في الثورة العربية فقد كان لهما دور مهم في الحفاظ على سلامة دمشق عندما انسحب منها العثمانيون في ٣٠ أيلول ١٩١٨م أمام تقدم القوات العربية فقد قام المغاربة بقيادة الحفيدين بالانتشار في المدينة وحمايتها من السلب والنهب، فكانَ لهما أثر فعال في نشر الطمأنينة بين السكان[١]. ثم تولى الأمير سعيد الإدارةَ في المدينة ورفع العلم العربي على بناية السراي، فكان أول من رفع علم الثورة العربية في دمشق وأعلن قيام حكومة عربية مؤقتة برئاستِهِ باسم الشريف حسين وأبرق بذلك إلى جميع أنحاء سوريا، وعندما دخل لورنس المدينة التقى بالأمير سعيد الذي أخبره قائلاً: «لقد ألّفنا أنا وأخي عبد القادر أحفاد عبد القادر الجزائري مع شكري الأيوبي سليل صلاح الدين حكومةً وطنية ونَادَيْنا الحسينَ ملكاً على العرب على مسمع ومرأى من الأتراك والألمان المدحورين».

وقد كان ذلك بتخويل من مساعد الأمير فيصل بن الحسين الشريف ناصر[٢].

إن في هذا القول عمقاً تاريخياً وشملا قوميا عبر الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه، فهو يمثل التقاء الإرادة العربية في مقاومة الغزو الأجنبي مهما كان لونه وهو يعبّر أيضاً عن الشعور بوحدة المستقبل والمصير وإن تباعدت المسافة الجغرافية بين مكة والجزائر.

رفض لورنس ما قاله الأمير سعيد وذلك ما دفع الأمير عبد القادر إلى مهاجمته لقتله إلّا أن أحد شيوخ القبائل أنقذ لورنس وقد قرر لورنس التخلص من الحفيدين فهاجمت الشرطة في تشرين الثاني سنة ١٩١٨م بيتَ الأمير عبد القادر لاعتقاله هو وأخوه فقاوم الشرطة التي أطلقت النار فقتلته بينما سُجِنَ سعيد في سجن المزة عشرة أيام ثم نُقل إلى حيفا وفي منتصف سنة ١٩٩١م أطلق سراحه وسمح له بالإقامة في بيروت[٣].

---

(١) د. على الوردي، لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث، ملحق الجزء السادس، بغداد ١٩٧٩م، ص ٨٣.

(٢) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، بيروت ١٩٦٣م، ص (٤٣٧).

(٣) الوردي، المصدر السابق، ص ٨٤. ٨٦.

لقد جرت هذه الأحداث قبل دخول الأمير فيصل بن الشريف حسين إلى دمشق والحقيقة أن التحرك البريطاني ضد حفيدي الأمير عبد القادر لم يكن هدفه ترسيخ حكم الأمير فيصل بقدر ما أريد منه إنهاء التحالف العربي للغدر بالحكم العربي وتصفيته وذلك بأنّ الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية الحليفة لفيصل تلقى قبل دخوله دمشق برقية تأمره أن يعمل طبقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو عند دخوله دمشق(١). وقد اعقبتها برقيات أخرى من دوائر بريطانية وفرنسية تقول: «اخنقوا حركة فيصل في مهدها أَوْ قِفوا السيل العربي، تذكروا اتفاقية سايكس ـ بيكو»(٢).

لذلك واجه فيصل عند دخوله دمشق التعنت البريطاني عندما أخبره اللنبي أن عليه أن يتولى حكم سوريا بالنيابة عن والده تحت حماية فرنسا وإشرافها، وأنه لا علاقة له بلبنان وفلسطين(٣) فكان ذلك الحدث الخطوة الأولى لإنهاء الحكم العربي في دمشق لصالح الفرنسيين بالاتفاق مع بريطانيا حين أُجْبِرَ فيصل على مغادرة سوريا وإسقاط الحكم العربي فيها(٤).

إن هذه الحادثة تؤكد عمق الروابط العربية بين المشرق العربي ومغربه وهي توضح أيضاً وحدة أهداف الغزو الأوروبي للسيطرة على الوطن العربي بأجمعه وليس المغرب العربي فقط.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى الصِّلات الوثيقة والرابطة العضوية والمصيرية بين المشرق العربي ومغربه من خلال المشاعر التي كان قادةُ المغرب العربي ومفكروه يكنونها نحو مشرقه فعبد القادر الجزائري عاش في المشرق قبل إعلان ثورته في الجزائر وسعى بكل جهده أن يقيم فيه بعد فشل ثورته ولم تكن إقامته الأبدية في دمشق تحمل طابع الخمول،(٥). كذلك لم يكن وصول عبد القادر الجزائري إلى

---

(١) *phillip knightly and colin simpson, the secret life of Lawrence of Arabia 1971, PP. 116-117.*

(٢) زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط بيروت ١٩٧١، ص ٧٩.

(٣) *Knightly and simpson, op, cit PP. 116-117.*

(٤) أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق ١٩٥٦، ص ٩٤.

(٥) الجزائر، المصدر السابق، ص ٦٣٠ ـ ٦٤٠.

دمشق وتنقله في القدس والحجاز حدثاً عادياً فقد استقبله العرب القوميون والمفكرون بكل حفاوة وترحاب[١]، تقديراً منهم للثورة العربية في المغرب العربي، وشعوراً منهم بوحدة الأهداف كذلك أقام عبد الكريم الخطابي في مصر وكان له نشاط عربي واسع فيها. ناهيك عن حركة العديد من المفكرين المغاربة إلى العديد من جهات الشرق العربي طلباً للعلم أو الإقامة أو العمل وإذا ما تتبعنا مقالة الدكتورة ليلى الصباغ في بحثها الموسوم الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث[٢]. لرأينا العديد من الأمثلة على ديمومة الاتصال العربي، والمهم في هذا كله نقطة أساسية وهي أنه مع عدم إهمال الجانب الديني فإن الشعور القومي العربي كان الأساس في إقامة المغاربة في المشرق العربي وإلا لكانوا اتجهوا للإقامة في تركيا أو إيران أو الباكستان باعتبارها بلاداً إسلامية، ولا شك في أن هذا يعود إلى تمسك العرب وانسياحهم ضمن الحدود الطبيعية لوطنهم متجاوزين الحدود المصطنعة فهم ينتقلون ضمن هذه الحدود الطبيعية من دون تردد ولكنهم بالتأكيد يشعرون بالغربة عند تجاوزها إلى بلاد أخرى.

الوحدة الفكرية العربية بين المغرب والمشرق:

دأب المؤرخون والمفكرون الذين كتبوا عن بدايات النهضة القومية العربية وفكرها على تحديد تلك النهضة بالحدود الجغرافية السياسية الممتدة من العراق إلى مصر تاركين الجزء الغربي من الوطن من دون إشارة إليه، مما يشكل قصوراً واضحاً في الكتابة عن تاريخ الوطن العربي في هذه المرحلة ويعود ذلك إلى عدم وضوح فكرة النهضة القومية العربية فقد تصورها البعض شبيهة بالفكر القومي الأوروبي الذي اصطدم مع الدين في بداية العصور الحديثة حيث خاضت البرجوازية الأوروبية والحكومات الملكية القومية صراعاً دموياً مع الكنيسة التي أرادت الاحتفاظ بسلطتها الدنيوية كما كانت عليه في عصر الإقطاع في حين يشكل التراث الحضاري الإسلامي أساساً قوياً للنهضة القومية الحديثة؛ إذ لا يمكن فهم العروبة إلا من خلال الإسلام مثلما لا يمكن فهم الإسلام إلا من خلال العروبة، فاختيار

(١) المصدر السابق، ص ٥٩٦ - ٦٠٨.

(٢) منشور في المجلة التاريخية المغربية، كانون الثاني ١٩٧٧، ص ٧٨ ـ ٩٨.

العرب لحمل رسالة الإسلام لم يكن لسوء حالهم وإنما لقدرتهم على أن يكونوا قادة للإنسانية جمعاء؛ ولأنّ مبادئ الإسلام الإنسانية تتجلى في سلوكهم وطباعهم وعاداتهم؛ لذلك فقد شرّفهم الله سبحانه وتعالى بحمل الرسالات السماوية الثلاث التي ختمها الإسلام.

من هذا المنطلق فإن الذين اعتبروا النهضة القومية العربية في المشرق بعيدة عن الإسلام كانوا مخطئين كذلك فإن الذين اعتبروا الكفاح المسلح للمغرب العربي دينياً صرفاً بعيداً عن العروبة هم مخطئون أيضاً. لقد نسي هؤلاء المؤرخون والكتاب أنه حينما كان عرب المشرق يدافعون عن وجودهم العربي الإسلامي من خلال الشعر والكتابة والتنظيمات السياسية كان المغرب العربي الكبير يسطر بدماء أبنائه ملحمة الدفاع عن وجوده العربي الإسلامي ضد الغزاة الأوروبيين ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المؤرخين قد نسوا أيضاً أن الخليج العربي هو جزء من المشرق العربي وكان يدافع بالسلاح عن وجوده القومي العربي الإسلامي ضد البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين ولا شك في أن هذا القصور ناتج عن غياب المنهج القومي في كتابة التاريخ العربي ذلك المنهج الذي يأخذ بعين الاعتبار حركة التاريخ ضمن الحدود الطبيعية للوطن العربي والذي لا يفهم العروبة إلا من خلال رسالتها الإسلامية الخالدة.

لقد كتب العديد من مفكري المغرب العربي الكبير عن العروبة والإسلام وعلاقة أحدهما بالآخر ووصل البعض منهم إلى حد مناقشة وضع البربر المسلمين. فهم يجمعون على أنّ عروبة المغرب تقوم على اللغة والدين والتاريخ المشترك والأكثرية الساحقة من البربر تتكلم العربية و بها يتفاهم السوسي مع الريفي والشلحي مع القبلي.

يضاف إلى هذا أن البربر يحرصون على تعلم العربية لكونها لغة دينهم ولأنها اللغة العلمية القومية الوحيدة التي تساعد على تطورهم الفكري بينما لا تعني لهجتهم البربرية بأكثرَ من معنى للتخاطب[١]. ومن الأدلة التي تؤكد هذا الرأي فشل الظهير البربري الذي أراد منه الفرنسيون شق وحدة المغرب العربي، ولا أريد

(١) أنور الجندي، "الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا"، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٨٣.

الدخول في تأكيدِ رأيِ معظمِ المؤرخين والكتابِ من أصل البربر العربي، أما إبراهيم غافر فيقول: إن الإسلام والعروبة هما العاملان الأساسيان اللذان أحييا المغرب وأخرجاه من ظلمات الاستعمار اللاتيني وساعداه على تكوين وحدته اللغوية والدينية والسياسية[١]. ويضيف أحمد توفيق المدني أن المغرب العربي لا يفرق بين العروبة والإسلام فالاثنان مفهومهما واحد، لا يكون المسلم إلا عربياً ولا يكون العربي إلا مسلماً ولنا نحو العربيةِ والعروبةِ التقديسُ نفسه؛ الذي لنا نحو الإسلام[٢] إن هناك أدلةً كثيرةً على وحدة الشعور القومي عند العرب جميعاً خلال المرحلة التي نبحثها وأن لم تكن هناك علاقة تنظيمية بين بعض أجزائه.

والنتاجات الفكرية تؤكد ذلك، فحينما كان الشعب العربي في العراق وبلاد الشام ومصر ينتظم داخل الجمعيات الأدبية والسياسية للحفاظ على وجوده القومي ضد سياسة التتريك العنصري، وحينما كان الكواكبي يؤكد على أهمية اللغة العربية في الحفاظ على الأصالة القومية وعلى أن يكون للمسلمين قيادة عربية لمحاربة الوجود التركي، وحينما كان إبراهيم البازجي ينشد في بلاد الشام:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

كان عبد القادر الجزائري ينشد:

لنا في كل معركة مجال ... ومن فوق السحاب لنا رجال

ورثنا سؤددا للعرب يبقى ... وما تبقى السماء ولا الجبال

فبالمجدِ القديمِ علت قريش ... ومنا فوق ذا طابت فعال

ومنا لم يزل في كل عصر ... رجال للرجال هم الرجال[٣]

كما كان الأمير عبد القادر يخاطب الجزائريين سنة ١٨٤٦م باللغة نفسها وبالمبدأ نفسه الذي يخاطب به الكتابُ العربُ الشعبَ العربيَّ في المشرق العربي،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٣) د. أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص ١١٩.

فكان يقول: «لقد أصبحتم تحت سلطة رومي يقاضيكم رومي ويدير شؤونكم رومي لقد داس الرومي حرية مساجدكم، واشترى أعراض نسائكم، واستولى على أجود أراضيكم وأعطاها إلى قومه. لقد حان موعد استفاقتكم! هبوا جميعاً واستجيبوا لندائي. إن الله قد وضع سيفه الملتهب في يدي. لنمضِ جميعاً إلى الأمام ونروِ حقولَ وطننا بدماء المعتدين»[١].

أليس في هذا القول تشابه مع ما قاله اليازجي من شعر وما أعلنه الشريف حسين في بيانه ضد الأتراك، لقد فرق العربُ في المشرق العربي بين العربيِّ والتركيِّ، وفرق المغاربةُ في المغرب العربي بين العربيِّ والروميِّ، وكلٌّ منهما ينشد شيئاً واحداً هو مقاومة المعتدين وتحقيق الإستقلال ونيل الحرية والحفاظ على الوجود القومي العربي الإسلامي.

ومن المفكرين القوميين الجزائريين في هذه المرحلة حمدان خوجة (١٧٧٣م. ١٨٤٠م) الذي يشكل مع رفاقه أحمد بوضربة وابن مرابط وحمدان آغة وإبراهيم بن مصطفى حزباً قومياً تحت اسم «اللجنة المغربية» دعا إلى الاعتراف بالقومية العربية في الجزائر، وكتب الخوجة بقول إن الأمة العربية قامت لترد العدوان الذي يهدد لغتها ودينها وعاداتها وتقاليدها ووجودها، كما رفع مذكرة إلى لجنة التحقيق الفرنسية (١٨٣٣) قال فيها: إن بين الشعبين الجزائري والفرنسي حواجز لا يمكن اجتيازها لأنهما لا يتحدثان اللغةَ نفسَها ولا يمارسان العاداتِ نفسَها ولا يؤمنان بالتقاليد نفسِها ولا يدينان بالدين نفسِه[٢]وأكد خوجة من خلال كتاباته أن (الوطن العربي للعرب) وعبر عن ذلك في كتابه (المرأة).

ومن المفكرين القوميين الجزائريين الآخرين العقبي والإبراهيمي، فقد تخرجا من معاهد مكة والمدينة، وتأثر العقبي بأفكار (الجمعية العربية الفتاة) لذلك نفاه العثمانيون من الحجاز ولم يعد إلا بعد الثورة العربية سنة ١٩١٦م حيث عينه الشريف حسين مديراً للمطبعة الأميرية وجريدة العقبة[٣]. أما الإبراهيمي فقد تأثر

(١) المصدر السابق، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١١٥- ١١٦.
(٣) صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، بيروت، ص ١٣٣.

أيضاً بالاتجاه العربي لحركة القومية العربية عند إقامته في بلاد الشام كمدرس قبل عودته إلى الجزائر[١]. أما عن عبد الحميد بن باديس فقد ربط بين تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي في عهد الاحتلال فقال «إذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعليم العربي فذلك لأن العربية هي لغة الدين الذي هو أساس حياتنا، ولأنها هي اللغةُ المطارَدةُ في عقر دارها المغلَقةُ مدارسُها ويحاربُ القانون نشرها بين أبنائها» لقد كتب ابن باديس كتباً عن الوحدة العربية و(العرب في القرآن) وعن (محمد رجل القومية العربية) مما قاله في كتبه: «إن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام» وأضاف: «هذه الأمة أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم.. وإن القومية العربية موضوع الأطراف وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة الإسلام والقرآن»[٢].

وإذا ما تناولنا الحركة الفكرية في تونس فإننا نجد فيها الملامح ذاتها التي ظهرت في الجزائر ومصر والمشرق العربي في مرحلة زمنية واحدة وكان الشيخ محمود قبادو (١٨١٤م ـ ١٨٧١م) الملقب برائد الإصلاح في تونس أولَ من أكد على ضرورة التمسك بالثقافة العربية الإسلامية، وساهم عملياً في ترجمة الكثير من الكتب العسكرية الأوروبية إلى اللغة العربية. اعتقد قبادو أن العلوم الطبيعية والرياضيات التي عرفها العرب المسلمون هي مدار التفوق الذي وصلت إليه أوروبا وتفوقت فيه على العرب وهو أيضاً سبب انحطاط الأمة العربية، فلا سبيل إلى رقيِّ الأمة العربية إلا باستعادة نهضتها[٣].

وعندما احتل الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١م شكَّل المفكرون العرب في تونس حركة (العروة الوثقى)، وكان من بين أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري، وأصبح جامع الزيتونة مركزاً لشباب هذه الحركة[٤]. وقد كان لتأثير مصر في تشكيل العروة الوثقى في تونس أثرٌ في زيادة الروابط الفكرية عند المفكرين العرب في القطرين.

(١) سعد الله، المصدر السابق ص ١٢٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٥ ـ ١٣٧.
(٣) الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص ١٧ ـ ١٨.
(٤) فاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، تونس، ١٩٧٢، ص ٥٩.

فكانت للكواكبي مثل غيره من المفكرين علاقة قوية بالشيخ محمد السنوسي وبوحاجب[١]. ومن المفكرين البارزين الذين اتجهوا اتجاهاً قومياً عربياً في تفكيرهم البشير صفر، فقد تصدى لمحاولات فَرْنَسَةِ تونس، وألقى في سنة ١٩٠٤م في المؤتمر الثقافي للجمعية الجغرافية محاضرة تحدث فيها (عن تاريخ الجغرافية عند العرب) وقد علقت جريدة الزمان الفرنسية على المحاضرة بقولها: (إن البشير صفر أثبت بجدارته واتساع ثقافته، أنه لا يوجد فرق بين العربي والفرنسي من حيث الكفاءة والمقدرة. وعندما دعا بعض الساسة المثقفين الفرنسيين ممن يدعون الاشتراكية للسيطرة على المغرب الأقصى باللين لا بالعنف، شنّ البشير صفر حملات صحفية عليهم في جريدة الحاضرة دفاعاً عن عروبة الشعب العربي في مراكش[٢].

أما عن عبد العزيز الثعالبي الذي كان طالباً في جامع الزيتونة ومعهد الخلدونية والذي أصدر سنة ١٨٩٥م جريدة (سبيل الرشاد) فقد كان معجباً بأفكار الكواكبي القومية. وقد أسس حركة تونس الفتاة سنة ١٩٠٨م[٣]. أي: أنها تأسست في الفترة التي تشكلت فيها الجمعيات العربية السرية في المشرق العربي مثل جمعية العربية الفتاة (١٩١١م) والجمعية القحطانية (١٩٠٩م) والمنتدى الأدبي (صيف ١٩٠٩م).

لقد تصدت تونس الفتاة إلى محاولات المستعمرين الفرنسيين بث الدعوة عند الشباب العربي التونسي لتقوية الحضور الفرنسي في المغرب العربي من خلال مؤتمر عُقِدَ في باريس سنة ١٩٠٨ م وحول تصدِّي كلٍّ من البشير صفر وخير الله بن مصطفى اللذين حضرا المؤتمر،لهذه الدعوة، فقد أكد الأول على عروبة تونس وعلى كونها جزءاً من الوطن العربي، وطالب الثاني بتعريب التعليم، وإنشاء مدارس ابتدائيه عربية على غرار المدارس المصرية والسورية[٤]. وقد كان لهذا

(١) الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٦- ٣٧.
(٣) محمد يوسف نحلة، تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الاحتلال الفرنسي ١٨٨١- ١٩٥٦، رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة المستنصرية في كانون الثاني ١٩٨١ وبإشراف الدكتور محمد مظفر الادهمي، ص ٨٥، ص ١٠٠ ١٠٤.
(٤) الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص ٤٢ ـ ٤٣.

التحرك أثره الكبير في تطور الفكر القومي لدى العرب التونسيين، ففي سنة ١٩٠٩م صدرت جريدة التونسي بالعربية وترأَّسَ تحريرها الشيخ / عبد العزيز الثعالبي[١] ومنذ ذلك التاريخ انفصلت الحركة الوطنية التونسية نهائياً وبتأثير الثعالبي عن الفكر الثقافي الغربي ومعاداة الثقافة الغربية ومن المؤسِفِ حقاً، أنه لا توجد إشارات أو دلائل عن العراقة بين أعضاء المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس سنة ١٩١٣م وبين العرب التونسيين الذين حضروا مؤتمر باريس سنة ١٩٠٨م ليدافعوا عن عروبة تونس، وليؤكدوا من خلال نقاشهم في المؤتمر اطلاعهم على التطور التعليمي والفكري في سوريا ومصر ولهذا الغرض لا بد من أن يكون مؤسسو الجمعية العربية الفتاة في باريس (تأسست في باريس سنة ١٩١١م وانتقلت إلى بيروت سنة ١٩١٣م وفي السنة التالية إلى دمشق) قد قرأوا وسمعوا عن مؤتمر سنة ١٩٠٨م من خلال الصحف الفرنسية التي هاجمت البشير صفر وبن مصطفى بسب أفكارهما القومية. إن هذه النقطة تحتاج إلى بحث وتقصٍّ؛ لأن فيها من المؤشرات ما يوحي بوجود علاقة بين هذه الحركات السياسية والفكرية العربية.

إن هذا الاتجاه الفكري العربي عند التونسيين وما صاحبه من مقارنة مشتركة مع الليبيين واتصالات وثيقة مع المصريين ومع حركة المقاومة في الجزائر، جعلت المقاومة العربية في هذا القطر تتجه اتجاهاً قومياً عبَّر عنه على باش حانبه عندما أعلن بكل صراحة ووضوح عن السير قدماً مع الحركات المناهضة للاستعمار في آسيا وأفريقيا مؤكداً أن الشباب العربي في تونس لن يقطع صلته بماضيه المجيد ولا يمكن أن يتخذ سياسة تصطدم بالشعور الوطني والقومي الذي نتعاون على خدمته مع الصحافة الوطنية العربية[٢].

أما عن المغرب الأقصى والذي يطلق عليه حالياً المغرب أو المملكة المغربية، فإن علاقاته بالمشرق العربي تمتد جذورها إلى العمق، خصوصاً وأنه لم يخضع للنفوذ الأجنبي إلا فيما بعد، فعندما تم للسلطان العثماني سليم الأول السيطرة على

(١) شارل اندرية جوليان، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس (بدون تأريخ) ص ٩١

(٢) الطاهر عبد الله، المصدر السابق، ص ٤٧.

الشام ومصر والحجاز واليمن ونقل من هذه المناطق أحمالَ الكتب إلى القسطنطينية العاصمة الجديدة غير العربية للدولة العثمانية، وكسدت سوق اللغة العربية لعدم اهتمام الحكام الجدد بها فاشرأبت أعناق المشارقة إلى المغرب الأقصى وهم يسمعون بأنباء نهوض دولة عربية فيه مستقلة عن النفوذ التركي. وبدأ علماء تلك الأقطار يكاتبون الملوك السعديين ويهدون إليهم مؤلفاتهم، وهاجر قسم من المفكرين إلى المغرب الأقصى من مكة والمدينة وبيت المقدس. وكان من بين من هاجروا شعراء مشارقة أخذوا يعقدون مناظرات في الشعر مع الشعراء المغاربة، وفي مساجد مراكش والمحمدية التف الطلبة حول هؤلاء الأدباء المشارقة يأخذون عنهم ألوانا أدبية جديدة؛ إذ رأوا فيها صورة حية لأولئك الشعراء الذين طالما أعجبوا بقصائدهم واستشهدوا بأبيات منها في مجال التدريس[١].

إن الدولة السعدية التي تأسست في المغرب الأقصى سنة ١٥١٠م وتوسعت لتضم مراكش سنة ١٥٢٥م التي أصبحت المقر الجديد للدولة السعدية ثم ضمت فاس سنة ١٥٤٩م، تُمَثِّلُ نهوضاً قومياً واضحاً يتمسك بالإسلام من خلال العروبة التي أصبحت أيام الخليفة أحمد المنصور السعدي عقيدة الدولة التي توجه سياستها الخارجية. ذلك بأن المنصور كان يؤمن بوحدة العرب تحت سلطنة (العربية الهاشمية) والتأكيد على الهاشمية مع العروبة يعني: التمسك بنسب الرسول الكريم محمد ﷺ، أي: العروبة بتراثها الحضاري في المشرق الذي جسدته رسالة الإسلام. وفي توجه أحمد المنصور هذا تحد واضح للسلطة العثمانية التي احتلت المشرق العربي في تلك الفترة وادعت الخلافة لذلك أكد على ضرورة تخليص العرب من الأتراك من دون التنصل من الإسلام، وهو ما حدث بالضبط في المشرق العربي فيما بعد أيام النهضة القومية العربية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما تصدى المشارقة لسياسة التتريك العنصري.

لقد أحكم المنصور صِلاتهِ بالمفكرين والفقهاء العرب فاستقدمهم ودعاهم إلى الكتابة عن دولته وأغدق عليهم الأموال والمكافآت ومنهم البكري والقرافي

(١) د. محمد حجي. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، المملكة المغربية ١٩٧٧، الجزء الأول، ص ٦٩ ـ ٧٠.

ومصطفى الحنابي والمقري ومحمد أمين الدفتري من مصر والشام والعراق، كما أرسل الدعاة إلى المشرق بصفة سفراء وتجار وطلاب علم وحجاج ورحالة، وغير ذلك منهم أحمد بن القاضي وعبد العزيز الثعالبي وأحمد الماسي وأحمد بن عبد الجليل[١]. ويقول أحمد بن القاضي: إن العرب في المشرق أصبحوا يفخرون بالمولى أحمد المنصور (وصارت العرب في كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم)[٢]. ويضيف ابن القاضي أن المشارقة كانوا ينتظرون ساعة الخلاص من الحكم التركي على يديه. ولم يعد بعض عرب المشرق يقرون بشرعية الخلافة العثمانية لإيمانهم أن العثمانيين هم من المماليك والموالي الذي دافع الله بهم عن المسلمين وأن نقلدهم أمور سلطة المسلمين هو أمانة ونيابة يؤيدونها إلى من هم أحق بها وهم العرب الشرفاء الذين هم من نسل الرسول ﷺ[٣]. وكان الدعاء لأحمد المنصور السعدي هو: (أيد الله دولته الطيبة الأعراف وملكه من السوس الأقصى إلى أقصى العراق)[٤]. إن شعراء الدولة السعدية قد عكسوا تطلعات المنصور السعدي في تأسيس دولة عربية موحدة، خصوصاً وأنه ضم السودان إليه ووصل إلى المناطق المتاخمة لحدود مصر التي اعتبرها البابَ نحو الشرق[٥]. وبهذا الصدد أنشد الشاعر محمد بن علي الهوزالي قائلاً:

لئن أسلمتْ أرضُ الجنوبِ مقادَها ... فعنْ كَثَبٍ تُلقي مقاليدَها مِصرُ

وتَزْوَرُّ زوراءُ العراق إليكُمُ ... وأعناقُ أعداكم لَكُمْ خُضَّعٌ صُغْرُ

وتخفق بالوادي المقدس راية ... عليك وتهوي فيه ألوية حُمر

(١) د. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) أحمد بن القاضي هو الرحالة المغربي الذي كتب عن تدهور الشرق الإسلامي الخاضع للأتراك في كتابه المنتقي المقصور، وهو مخطوط قام بتحقيقه الأستاذ محمد رزوق (رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب الرباط). وقد تناول في الصفحة ٧٦٨ الموضوع أعلاه. وناقش تطلع المشارقة إلى دولة السعديين بقيادة أحمد المنصور في الصفحتين ٧٦٧- ٧٦٨.

(٣) د. عبد الكريم كريم، المصدر السابق، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٤) المقري، روض الاس، ص ١١١.

(٥) الفشتالي، مناهل الصفا، ص ١٦٤.

وفي قصيدة لعبد العزيز القشتالي قال:

أَدْرِكَـنْ مـصـرَ والـعـراقَ ويَـمِّـمْ حَـرَمَ الـحـي فـيـهِ مـنْ خـيـرِ آلِ

إن شـرق الـبـلاد يـرجـوك شـوقـاً مـثـلَـمـا يُـرتَـجَـى طـلـوعُ الـهـلالِ

وعبر الشاعر الحسن بن أحمد المسيفوي عن المشاعر القومية المندفعة المؤمنة بحكم العرب بدلا من الترك وبوحدتهم العربية بالقول:

فـمـا دون درب الـشـام غـيـرُ الـتـفـاتـةٍ وما دونَ بـغـدادِ الـعـراقِ سـوى فِـتْـرِ

وقال:

فـلـسـوف يـطـوى مـغـربـاً ومـشـارقـاً ويـزور دجـلـة والـفـراتِ بِـعَـسْـكَـرِ

وتـحـل بـالـحـرمـيـن رَبْـعـاً زاكـيـا مأوَى الجدودَ ذوي السجايا الطُّهَّرِ

ويؤكد الشاعر على أحمد المسيفوي تطلعات المنصور السعدي بقوله:

وهـذي الـشـآمُ وهـذي الـعـراقُ سـتـمـسـي لـكـم وهـي دار الـقـرار[1]

ولم تهمل الدولة العلوية في المغرب الأقصى مسيرة السعديين في مجال العلاقات مع المشرق، على الرغم أنّها لم تظهر بالشكل الذي كانت عليه أيام المنصور السعدي، فقد بقي اتصال مفكري المغرِب وعلمائه بالمشرق، ومنْهم ابن سليمان الروداني وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوي وغيرهم. وفي أيام العلويين اتجه العديد من أدباء المغرب وعلمائه إلى مصر والحجاز وبلاد الشام والعراق، مثل العياشي واليوسفي وأحمد بن ناصر وأحمد القادري ومحمد الفاسي شيخ الأفراني ومحمد بن الطيب العلمي[2] وتذكر المصادر أن المشارقة كانوا ملمين

(١) لقد أورد الدكتور عبد الكريم كريم في كتابه المغرب في عهد الدولة السعدية هذه الأشعار في هامش صفحة ١٨٧، من كتابه هذا نقلاً عن كتاب مناهل الصفا للقشتالي المنشورة فيه في الصفحات (١٤٢، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١).

(٢) عبد العزيز بن عبد الله «الحركة الفكرية في العهد العلوي» الجزء الأول مجلة رسالة المغرب الرباط، نوفمبر ١٩٥١، ص ١٢ ـ ١٣.

ببعض العلوم غير المتداولة بالمغرب؛ لذلك اتجه التاودي والزيادي إلى المشرق وطال مكوثهما هناك، بل إن عبد القادر الكوهن مكث في المدينة ومات فيها[١]، وشبه المؤرخون والرحالة المغاربة مدينة فاس بدمشق، والرباط بالاسكندرية ومراكش ببغداد، واقتبس المغاربة أسماء بعض مدن المشرق مثل (البصرة). وتوثقت أيام دولة العلويين روابط الدول التجارية وطرق المواصلات بين بغداد وتخوم الصحراء المغربية، فكانت سجلماسة مهبط القوافل العربية المنحدرة من البصرة والكوفة ومأوى التجار المشارقة عموماً الذين يتوافدون للاستقرار في أكنافها. ويكفي أن نتصفح بعض مصنفات هذه الفترة لنلمس حيوية الروابط التي كانت قائمة بين المشرق العربي والبادية المغربية[٢].

إن هذه الصلات قد سهلت وصول بعض دعوات المشرق الفكرية، ومنها الدعوة الوهابية فتذكر بعض المصادر أن التصانيف الصوفية في المغرب الأقصى قد تقلصت أثر ظهور الحركة الوهابية التي أثارت موجة من النقاش عندما وصل استفتاء ابن سعود إلى علماء فاس[٣] المدينة التي أصبحت مركزاً للعلويين بدلاً من مراكش السعديين، ولا بد من الإشارة أخيراً إلى ما ذكره أبو العباس أحمد التيجاني من المغرب الأقصى من أن النهضة العربية التي ظهرت في المغرب في أوائل هذا القرن، تعود إلى اطّلاع المغاربة على الفكر المشرقي من خلال المقالات والصحف والمجلات والمؤلفات، مثل صحيفة اللواء والعروة الوثقى وأم القرى وشعر البارودي وحافظ وعبد الله النديم[٤]. أما عن ليبيا التي تفاعلت مع أحداث المشرق والمغرب العربيين، فإن أول تجربة تنظيمية تمثل اليقظة العربية الحديثة فيها قد ظهرت بعد احتلال البريطانيين لمصر سنة ١٨٨٢م، وكانت وثيقة الصلة باليقظة

(١) عبد العزيز بن عبد الله «الحركة الفكرية في العهد العلوي، الجزء الثاني مجلة رسالة المغرب، الرباط، دجنبر ١٩٥١، ص ١٩،

(٢) عبد العزيز بن عبد الله «رسالة الحضارة المغربية» مجلة رسالة المغرب، الرباط عشت ١٩٥٢، ص ٢٧.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله «الحركة الفكرية في العهد العلوي» الجزء الثاني، مجلة رسالة المغرب، ص ٢٠.

(٤) أنور الجندي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

العربية الحديثة في الأجزاء العربية الأخرى، وقد دعت هذه الجمعية السرية إلى مقاومة الأطماع الفرنسية في تونس والجزائر، وأكدت على ضرورة التعليم باللغة العربية، كما نبهت أعضاءها إلى أهمية الدفاع عن (الوطن واللغة والجنس والدين) وكان من أبرز أعضائها أحمد النائب وحمزة الدين وإبراهيم سراج الدين، وهذا الأخير أصدر جريدة أسماها (الحجاز)[١]. ولا شك في أن مقاومة عمر المختار فيما بعد تمثل رمزاً بارزاً للإجماع العربي في تأييدها وفي توجهاتها العربية.

إن النتيجة التي نخرج بها من هذا البحث هي أن التدهور السياسي الذي شهدته الأمة بعد سقوط بغداد في المشرق العربي قد ساد الوطن العربي كله، ولأن دولة الموحدين في المغرب العربي الكبير قد سقطت وتمزقت في الفترة نفسها من جانب آخر فإن الغزو الأجنبي الذي أعقب عملية التدهور السياسي لم يستهدف المغرب العربي وحدَه، كما أنه لم يقصد المشرق العربي فقط، بل كان جزءاً من مخطط استهدف احتلال الوطن العربي أجمعَ نظراً لأهميته الاستراتيجية المتعلقة بالترابط الجيوبوليتكي بين المغرب والمشرق، فإذا كان المغرب قد شهد غزوات أوروبية باسم المسيحية والتعصب الديني مما تطلب التأكيد على الروح الإسلامية. فإن ذلك لا يعني ابتعاداً عن العروبة التي تمثل مع الإسلام التراث المشرقي الذي استلهم منه المغاربة العزيمة والقوة، لهذا كان ذكر العرب يعني ذكر الإسلام ولا ينسى المغاربة عند ذكر الإسلام أن مادته هم أجدادهم وآباؤهم العرب.

أما عن المشرق فإن الغزوات الأجنبية التي استهدفته متخذة من الإسلام برقعاً لفرض نزعاتها العنصرية استوجبت من المشارقة التأكيد على العروبةِ التي فهموها على أنها لا تعني شيئاً من دون الإسلام؛ لأنهما ركنا الحضارة وأساسها ومادة التراث الشرقي، وعليه فإن ذكر العروبة يقترن بذكر الرسول العربي الكريم محمد ﷺ الذي يمثل كل العرب من خلال دعوته الدينية التي جسدت مبادئ الإسلام الإنسانية.

وإن الحديث عن العرب لا ينفصم عن تراثهم الإسلامي المشرقي. وهذا الشعور ليس وليد العصور الحديثة من تاريخنا، بل هو امتداد لمواقف عاشها العرب

(١) بدايات القضية العربية والنضال الشعبي في ليبيا ١٨٨٢م. ١٩١١م، وقائع محاكمة أو تنظيم سياسي في ليبيا، أعداد وتقديم د. أحمد صدقي الدجاني، بيروت ١٩٧٧م، ص ١٣. ١٧.

منذ أن بدأت الأقوام الأجنبية تحاول تمزيق وحدتهم ودولتهم العربية الإسلامية من خلال دخولها الإسلام. والأمثلة كثيرة على هذا ومن أبرزها الحركة الشعوبية الفارسية وحركات الأتراك والبويهيين والسلاجقة الذين كانوا من العوامل الأساسية في سقوط الدولة العربية الإسلامية سنة ١٢٥٨ م. وبعد سقوط هذه الدولة وسيادة العناصر الأعجمية الغازية على العرب، مارس المغول الاضطهاد ضد العرب وغيرهم من أقليات الوطن العربي، إن هذا القمع الأجنبي في المشرق العربي عبر التاريخ هو الذي أفرز في النهاية الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م ضد الأتراك العثمانيين، والتي رفع لواءها الشريف حسين، ولهذا فإن هذه الثورة تمثل انتفاضة عربية إسلامية لاسترداد حقٍّ مشروعٍ لا يمكن للإسلام أن يقوَى ويحافظ على مبادئه من دونه، وهو حق العروبة في كونها مادة الإسلام الأساسية.

وأخيراً فإنه على الرغم من الامتداد الواسع للوطن العربي والخصوصية التي تميزت بها كل منطقة عن الأخرى، فقد كانت هناك صلات وثيقة جسدت وحدة حركة التاريخ في الوطن العربي والتي نشهد نتائجها الواضحة في عصرنا الحاضر.